حتّى استقامت في جلستها ردّاً على سؤالي، وانتصب مرفقُها باستفزاز في وجهي، فيما راحت ذراعها الأخرى تلوّح في الهواء على نحوٍ خطابيّ. «عدّة مرّات»، ردّت بحسم، متخذاً صوتها صفة الصفاقة التي يقرنها المرءُ في العادة بفتاةِ ليلٍ. وبدت عيناها ونبرتها وكأنّها تضيف قائلة: «وماذا يهمّ؟ لقد عرفتُ الكثير من الرجال». وهنا حاولتْ نبيهة، القلقة دوماً، أن تُخرجنا من هذا المأزق الصغير فسألَتْها عمّن أحبّت من أولئك الرجال أو أثّر فيها. فردّت بقسوة: «لا أحد منهم على الإطلاق، كلّهم كانوا أولاد زنا»، وأعقبت إعلانها هذا بسلسلة تجديفات. وبعيداً عن استسلام الشيخوخة الورع وتجرّدها، فقد كشفَ هذا الجَيَشانُ عن إنسان فردانيّ ومحارِب. ومع ذلك فإنّ المرء ليشعر برومنطيقيّة امرأة خُدِعْت مراراً لكنّها بقيت على استعداد لأن تقع في الحبّ من جديد لو أُعطيت الفرصة لذلك!

ولقدْ أرّخت أمامنا متاعبُ «تحيّة» الأخيرة مع رجل، هو النذل فائق حلاوة، بتفصيل لا يعرف الرحمة. وعلى الرغم من ذلك فقد كان تعاطُفنا معها كاملاً، وكان الأمر كذلك حين طاردت تحيّة ونبيهة موزِّع أفلام ثريّاً كان يسعى إلى التلاعب بأمور النقابة. «آه من الرجال»، تنهّدت، وتطلّعت إليَّ بفضول.

لقد عرفتْ «تحيّة» أنماط عالمها وأشكالها، والتزمتْ بها إلى حدٍّ بعيد. فقد كانت ابنةً مطيعة في الماضي، وهي الآن عجوز مسلمة تقيّة. ومع ذلك فإنّ تحيّة قد كانت شعاراً لكلّ ما كان غير محكومٍ وغير مضبوط وغير موظَّف في ثقافة عصرها؛ وللقيام بمثل هذه المهمّات فقد كانت مهمّة «العالمة» والراقصة والممثّلة الخارقة حلاًّ ممتازاً. وكنت تُحسّ بالثقة التي أضفتها على علاقتها بمراكز السلطة، بالتحدّي الذي تقوم به امرأة حرّة. وعندما ذهبتُ إلى أرشيف السينما المركزي في القاهرة في اليوم التالي للبحث عن مواد مصوّرة ومكتوبة عن «تحيّة» لم أجد إلاّ خرائب: شقّةً صغيرةً في قلب المدينة التجاري، تحتوي على عمّال يتجاوز عددهم حاجةَ العمل، وتصاميمَ غامضةٍ تؤرّخ لتاريخ مصر الفنّي الغني يتجاوز عددها الخطط الفعليّة المعدّة لتنفيذ العمل. عندها، وجدت أنّ «تحيّة» هي تاريخها ذاتُه، وهو تاريخ يكاد أن يكونَ عديم التوثيق، لكنّه تاريخ لّما يزل جليل الحضور هدّاماً.

المثقّفــــون

منْفيّيـــــن: مغتربون وهامشيّون(*)

د. ادوارد سعيد

الْمَنْفَى واحدٌ من المصائرِ الأشدِّ إثارةً للحُزن. ففي العصور ما قبل الحديثة، كان الطَّرْد (banishment) عِقاباً مُروِّعاً بامتياز، لأنّه لم يكن مجرَّدَ أعوامٍ من الهيامِ على غير هُدىً بعيداً عن الأهل والأماكن المألوفة؛ بل كان يؤدّي بالمطرود إلى أن يصبح أشبه بمنبوذٍ (outcast) دائم، بإنسانٍ لا يشعر قطُّ أنّه في وطنه بل هو في نزاعٍ مستمرّ مع محيطه: لا عزاءَ له في الماضي، ويحسّ بمرارةٍ تجاه حاضره ومستقبله.

هناك افتراضٌ شائع، ولكنّه خاطئٌ تماماً، ومؤدّاه أنّ كَوْنَ المرءِ منفيّاً يعني انقطاعَهُ التّامَّ وعزلتَهُ وانبتَاتَه اليائسَ عن الوطن الأمّ. حبّذا لو كان مثلُ ذلك القَطْع الجرّاحيِّ النّظيفِ أمراً حقيقيّاً؛ إذنْ لَكَان باستطاعة المنفيّ أن يتعزّى، على الأقلّ، بأنّ ما خلّفه معدوم وغير قابلٍ للاستعادة.

والحقّ أنّ الصّعوبة بالنّسبة لأكثر المنفيّين لا تكمن في مجرّد كونهم قد أُجبروا على العَيْش بعيداً عن بيوتهم؛ وإنّما في عَيْشِهم وَسْط ما

(*) «Intellectual Exile: Expatriates and Marginals»، وقد نُشرت في جريدة The Independent في الثّامن من تموز الماضي. والجدير بالذّكر أنّ إدوارد سعيد يستخدم كلمةَ exile اسماً وحالةً فهي في المعنى الأوّل تقابل كلمة «المنفى» أو «المُغْتَرَب»؛ وهي في الحالة الثّانية تقابل كلمة «المَنْفيّة»، إذا جازَ التّعبير، أيْ حالة الإنسانِ في المنفى أو المُغْتَرَب. كما ينبغي التّنويه بأن المنفى حسب المصطلح السّعيدي ـ وحسب ما يؤكّده في مادّته الجامعيّة في جامعة كولومبيا في نيويورك ـ نوعان. طوْعيّ وقَسْريّ. وستكشف المقالةُ التّالية عن نوعٍ ثالث للمنفى، وهو منفى الوطن (هامش المترجم).

يذكّرهم على الدّوام بأنّهم في المنفى، وبأنّ بيوتهم ليستْ في الواقع على ذلك البُعد، وبأنّ عجلةَ الحياةِ اليوميّة العاديّةِ الطّبيعيّة تبقيهم على تمَاس ثابتٍ ـ مُقِضٍّ وغيرِ ناجزٍ ـ مع الأمكنة القديمة.

وهكذا يعيشُ المنفيُّ في منطقةٍ وُسْطى: فلا هو مُنْسَجِمٌ مع وضعِهِ الجديد، ولا هو متحرّرٌ من وضعِهِ القديم تحرّراً تاماً؛ تُقضُّهُ الارتباطاتُ شبهُ الكاملة والانفصالاتُ شبهُ الكاملة على حدٍّ سواء؛ وُطانيٌ وعاطفيٌّ من ناحية، ومقلِّدٌ ماهرٌ ومنبوذٌ خَفيٌّ من ناحية ثانية. وتغدو المهارةُ في البقاءِ على قيْد الحياة حاجَتَهُ الرّئيسيّة، وتشكِّلُ مخاطِرُ الرّاحةِ والأمانِ الزّائديْن تهديداً ماثلاً يُحْذَرُ منه على الدّوام.

إنّ «سالم» [سليم]، الشّخصيّة الرّئيسيّة في رواية ف.س. نايبول **منعطفٌ في النهر**[1]، لَهُوَ شاهدٌ مُؤثِّرٌ على المثقّف الحديث في المنفى. فهو إفريقيٌّ، شرقيٌّ، مُسلم، من أصلٍ هنديّ، ترك السّاحلَ وسافر باتّجاه الدّاخل الإفريقي حيث عاش حياةً مُقَلْقَلَةً في دولةٍ حديثةٍ من طراز زائير موبوتو. ويمكّن هوائيُّ (antennae) نايبول الفائقُ روائيّاً الكاتبَ من تصوير حياة «سالم» وكأنّها عند «منعطف في نهر»: في منطقة [إفريقيّة] مشاع يتوافَدُ إليها المُسْتَشارُون المثقّفون الأوروبيّون (الّذين خَلَفُوا مبشّري العصور الاستعماريّة المثاليّين) والمرتزقةُ والمُسْتَغِلُّون وغيرُ هؤلاء وأولئك من حُثالةِ العالَم الثّالث وتافهيه. ويكون على «سالم» أن يعيش بين ظهرانيهم، فيفقدَ أملاكَه واستقامَتَهُ، شيئاً فشيئاً، في خضمّ الفوْضى المتصاعدة. وفي نهاية الرّواية ـ وهنا نأتي إلى ملاحظة نايبول الإيديولوجيّة الجديرةِ بالنّقاش ـ يتحوّلُ سكّانُ البلدِ الأصليّون أنفُسُهم إلى منفيّين في وطنهم؛ ذلك أنّ نزوات الحاكم («الرّجل الكبير») ـ وهو الّذي يرمز به نايبول إلى كُلّ الأنظمة الّتي أعقبت الاستعمارَ ـ تبلغ من الضّلالِ والبُعْد عن المنطق شأْواً مريعاً.

إنّ إعادة التّرتيبات الإقليميّة الواسعة الّتي حَدَثتْ في مرحلةِ ما بَعْدَ الحرب العالميّة الثّانية قد أدّت إلى حركات نزوح سكّانيّة هائلة: فعلى سبيل المثال، نزح مُسلمون هُنودٌ إلى الباكستان عقب التّقسيم عام ١٩٤٧، وتبعثر الفلسطينيّون بأعداد كبيرة عند قيام إسرائيل أثناء سعي هذه الأخيرة إلى إسكان اليهود الأوروبيّين والآسْيَويّين الوافدين إلى فلسطين. وقد أدّتْ جميعُ هذه التّحوّلات، بدورها، إلى أشكالٍ سياسيّة هجينة. ففي الحياة السّياسيّة في إسرائيل، ليس ثمّة أساليبُ سياسيّة تقتصر على الشّتات اليهودي، بل هنالك أيضاً أساليبُ سياسيّة خاصّة بالشّعب الفلسطيني في المنفى، وهي أساليب تنافس الأساليبَ الأولى وتتجادل معها. وفي الباكستان وإسرائيل المؤسَّسَيْن حديثاً، اُعتبِرَ الوافدون الجُدُدُ جزءاً من عمليّة تبادُلٍ بين السكّان، لكنّهم اعتبروا من النّاحية السّياسيّة أقليّاتٍ قُمِعَتْ في السّابق وتُمَكَّنُ اليوم من العيش في دولتيْن جديدتيْن وكأنّها جزءٌ من الغالبيّة! غير أنّ التّقسيم والإيديولوجيّا الانفصاليّة اللّذيْن اعتمدتهما مثل هاتين الدّولتين الجديدتيْن لم يحلاّ المسائلَ الأقواميّة، بل غالباً ما أضْرَماها وأَجّجاها.

* * *

سأُوجِّهُ عنايتي هنا إلى المنفيّين الّذين لم يُكيَّفُوا [أولم يتكيَّفُوا] (unaccomodated) مع أوضاعهم الجديدة، أمثال الفلسطينيّين أو المهاجرين المسلمين الجُدد في أوروبّا أو الهنود الغربيّين والإفريقيّين السُّود في انكلترا؛ ويعقّد وجودُ جميع هؤلاء التّجانُسَ المزعومَ في المجتمعات الجديدة الّتي يحيَوْن فيها. ويشكّل المثقّفُ الّذي يعتبر نفسَهُ جزءاً من وضع أشمل ـ وضع ذي أثر على الجالية القوميّة المُرَحَّلَة ـ مصدراً لا للتثاقف والتكيّف، بل للتقلُّب وانعدام الاستقرار.

إلاّ أنّ ذلك كُلَّه لا يعني على الإطلاق أنّ المنفى قد لا يُنتِج كذلك نماذجَ هي آيةٌ في التّكيُّف. وتقدّم الولايات المتحدة مثالاً نادراً في هذا الصدد؛ فهي تضمّ مسؤوليْن حكوميّيْن سابقيْن كبيريْن هما في الوقت نفسه مثقّفان هَجَرا وطنيْهما الأصليّيْن ـ عنيتُ: هنري كيسنجر القادم من ألمانيا النّازيّة، وزبيجينو بريزنسكي القادم من بولندا الشّيوعيّة. هذا، وقد اعتبَرَ بعضُ المهاجرين ـ كتوماس مان ـ الحربَ العالميّة الثّانيةَ معركةً من أَجْل المصير الغَرْبيّ والرُّوح الغربيّة؛ وفي هذه «الحرب الخيِّرة» قامت الولاياتُ المتّحدة بدوْر المُخلِّص [في رأيهم]، موفرةً ملجأً لجيلٍ من الأكاديميّين والفنّانين والعلماء الّذين فرّوا من وجه الفاشيّة باتّجاه الأمبراطوريّة الغربيّة الجديدة. ففي الحقول الأكاديميّة كالإنسانيّات والعلوم الاجتماعيّة، أغنى عددٌ كبيرٌ من الأكاديميّين المهاجرين ـ وبعضهم، كـ«ليوسپتزر» و«إريك آورْباخ»[2]، متميِّزُون تميُّزاً فائقاً ـ الجامعاتِ الأمريكيَّةَ بفضل قدراتهم وخبراتهم الخاصّة

(١) ڤيدياذار سوراجپيراساد نايپول روائي ولد في ترينيداد عام ١٩٣٢ من أبويْن هندوسيّين ودرس في أوكسفورد، ثمّ استقرّ في انكلترا عام ١٩٥٥ وتزوّج في ذلك العام وعمل في الصحافة الثّقافيّة. لكنّه في نهاية السّتينات صارَ أكثرَ جَهْراً برؤيته السّياسيّة، ولاسيّما في كتبه: **في دولة حرّة** (١٩٧١)، **والدّاعرون** (١٩٧٥)، الّتي تحكي عن العنف السّياسي والجنسي في الكاريبي، **ومنعطف في النّهر** (١٩٧٩) الّتي تدور أحداثها في إفريقيا الصّاعدة. نالَ عام ١٩٨٣ «جائزة القدس» التي تمنحها دولة «إسرائيل» مرّةً كُلَّ عاميْن لكاتبٍ تعبّر أعماله «عن حرّيّة الفرد»! (هـ.م.).

(٢) «آورْباخ» توفّي عام ١٩٥٧، وكان استاذاً للّغات الرّومانسيّة (أي النّاشئة عن اللاّتينيّة) في جامعة يال في الولايات المتحدة. أشهر كتبه Mimesis **(المحاكاة)**؛ ويحمل عنواناً فرعياً: «تمثيل الواقع في الأدب الغربي». وفيه يغوص المؤلّف في الأدب الأوروبّي ابتداءً من أدويسّة هوميروس والكتاب المقدّس، وانتهاءً بـ يوليسيس لجويس وكتابات پروست وڤيرجينيا وولف، مروراً بالقدّيس أغسطين ودانتي وسان سيمون وغوته وفلوبير وزولا. وقد تبنّى النّاقد الشّهير «رينيه وِلِك» الرّأي القائل بأنّ **المحاكاة** هو أهم كتاب في حقل الجماليات والتّاريخ الأدبي في السّنوات الخمسين الأخيرة (هـ.م.).

بالعالم القديم[٣]. كما أنّ عدداً آخَرَ من المثقّفين المهاجرين ـ ومن بينهم علماء كـ «إدوارد تالير» و«فيرنر فون براون» ـ دَخلوا عالمَ الحربِ العالميّة الثّانية بصفتهم أمريكيّين جُدُداً متفانين في معركةِ كَسْبِ سباقِ التسلُّح والفضاء مع الاتحاد السّوفياتي.

* * *

كيف يُدَبِّر المثقّفُ سبيلاً يكيِّفُ به عيشَه في ظلّ سلطةٍ جديدةٍ أو مسيطرةٍ صاعدة؟ هذا ما سيكون موضوع محاضرتيْن تاليتيْن لي. وأمّا هنا، فإنّي أوَدُّ أن أُركِّزَ على نقيضِ ذلك المثقّف المتكيِّف؛ فأتحدَّثَ عن المثقّف الّذي لا يقدر على التّكيّف أو لن يقوم بذلك التّكيّف، بسبب مغتربه، مُؤثِراً البقاءَ خارجَ تيّار الحياةِ العامّ، مقاوماً، عَصِيّاً على الاستيعابِ والاحتواء.

ليس المنفى حالةً فعليّةً فحسب، بل هو حالة استعاريّة أيضاً. فبإمكان المثقّفين الّذي يعيشون في مجتمعاتهم أن ينقسموا، بدورهم، إلى «مثقّفي داخل» (insiders) و«مثقّفي خارج» (outsiders)[٤]. فمن المثقّفين من ينتمون إلى مجتمعهم كما هو انتماءً كُلّياً، ويرتقُون فيه من غير أن يتلبَّسَهُم حِسٌّ طاغٍ بالنَّشاز والانشقاق عن مجتمعهم، فتصحُّ تسميتُهُم إذّاك بـ«القائلين: نعم» (yea - sayers)؛ ومنهم من تصحّ تسميتُهُم بـ«القائلين: لا» (nay - sayers)، وهم الّذين يكونون على خِصام مع مجتمعهم، فهم خارجَه، منفيّون من حيثُ عَدَمُ حصولِهم على الامتيازات والسّلطة والأوسمة. وإنّ السِّياقَ الّذي يُحدِّدُ طريقَ «مثقّف الدّاخل» ـ وهوَ، في رأيي، الدّورُ الصّحيحُ الّذي ينبغي على المثقّف المعاصر أن يؤدِّيه ـ يتمثّل أفضل تمثيلٍ في حالةِ المنفى، وهي حالةُ انعدامِ التّكيُّف مع المجتمع تكيُّفاً تامّاً. وبهذا المعنى الماورائي، يغدو المنفى ـ بالنّسبة للمثقّف ـ موازيّاً للتَّمَلْمُل والحركة: فلا يستقرّ المثقّف على حال، ولا يُقِرُّ الآخرين على حالٍ أيضاً.

هناك ملاحظة ثانية أجُدني منذهلاً إذْ أُدلي بها لِتَوِّي. وهي أنّ المثقّف منفيّاً (as exile) يميل إلى أن يسعد بفكرةِ عدم السّعادة. بل انّ عدمَ الرِّضى الّذي يُحاذي العُسْرَ ـ وهو نوعٌ من المشاكسة الفظّة ـ لا يصبح نمطاً من التّفكير فحسب، بل يصبح كذلك مَسْكناً جديداً وإنْ يكن مؤقّتاً؛ إنّه مثقّف على غرار ثيرسيتيس الطنّان، رُبّما[٥]. والنّموذَجُ العظيم الّذي يخطر في بالي بصدد ذلك النّوع من المثقّف هو جونائان سويفت، وهو كاتبٌ من القرن الثّامن عشر، لم يهضمْ فكرةَ سقوطه عن عرشِ النّفوذ والمكانة في انكلترا بعد أن غادر التوريّون [المحافظون] الحكمَ عام ١٧١٤، وقضى بقيّة حياته منفيّاً في إيرلندا. إنّ «سويفت» نموذجٌ يكادُ أن يكونَ أُسطوريّاً للمرارة والغضب ـ إنّه «saeve indignatio»، كما جاءَ في نعتِه نَفْسَهُ على شاهدِ قبرِه ـ ؛ فهو يشتعل غضباً على إيرلندا، لكنّه ينافح عنها في مواجهة الطّغيان البريطانيّ. وإنّه لَرَجُلٌ يبيِّنُ كتاباهُ الإيرلنديّان السّامقان **رحلات غوليفر** و**رسائل الجوّاخ** عقلاً يزدهر ـ كي لا نقول: ينتفع ـ من مثل ذلك الكَرْبِ.

وإلى حدٍّ ما، فإنّ ف.س. نايبول ـ وهو كاتبُ مقالاتٍ ورحلات، يقيمُ في انكلترا بين الفينة والأخرى، لكنّه في حالة تنقُّلٍ دائم، يعودُ جذورَه الكاريبيّة والهنديّة، نابشاً في حطام الكولونياليّة وما بعد الكولونياليّة، مُصْدِراً أحكاماً لا هوادة فيها على أوهام الدّول المستقلّة و«المؤمنين» الحقيقيّين الجدد، وعلى الأعمال الوحشيّة الّتي يقوم بها هؤلاء وتلك ـ . . أقول: إنّ نايبول في مراحله المبكّرة قد كان مثالاً على المثقّف المنفيّ الحديث.

* * *

على أنّ ثمّة كاتباً آخر يفوقُ نايبول من حيثُ التّحديدُ الجازمُ والفاصلُ للمثقّف المنفيّ. إنّه ثيودور فيسنغروند أدورنو[٦]، الّذي أعَدُّهُ الضّميرَ الثّقافيَّ الطّاغي لسنوات منتصف القرن العشرين. وأدورنو رجلٌ صارمٌ، لكنّه مدهشٌ أبداً، وقد قضى حياته المهنيّة كُلّها وهو يتجنَّبُ مخاطِرَ الفاشيّة والشّيوعيّة والاستهلاكيّة الغربيّة الواسعة، ويحاربها جميعها وجهاً لوجهٍ على حدّ سواء. وهو، على عكس نايبول الّذي طافَ بين بيوتِه السّابقة في العالم الثّالث دخولاً وخروجاً، قد كان أوروبيّاً خالصاً، مصنوعاً برمَّتِه من أسْمى الثّقافات السّامية الّتي تتضمَّن كفاءَةً مهنيّةً مذهلة في الفلسفة والموسيقى (وكان تلميذاً لـ «برغ» Berg و«شونبرغ» Schoenberg) وعلم الاجتماع والأدب والتّاريخ والتّحليل الحضاري. وكان مثقّفاً ذا خلفيّةٍ شبه ـ يهوديّة، غادر موطنه ألمانيا في أواسط الثّلاثينات بُعَيْدَ سيطرة النّازيّين على الحُكْمْ. فذهب أولاً لدراسة الفلسفة في جامعة أوكسفورد، حيثُ ألفَّ كتاباً في غاية الصّعوبة عن هاسرل Husserl. ويبدو أنّه قد شعر بالبؤس هناك: فقد كان محاطاً بفلاسفةٍ لغويّين وَوَضعيّين عاديّين، بينما كان هو ذا كآبةٍ شبنغلريّة وجدليّة ماورائيّة من الطّراز الهيغلي الأسمى. ثمّ عاد إلى ألمانيا فترةً من الزّمن، لكنّه ما لبث أن حَطّ عصا ترحَاله ـ بوصفه عضواً في جامعة معهد فرانكفورت للبحث الاجتماعي ـ ، وعلى مَضَض، في الولايات

---

(٣) أي نصف الكرة الشرقيّ، وبخاصّة: أوروبّا.

(٤) بإمكاننا أن نضع ثنائياتٍ مترجمةً أخرى، فنقول: «جوانيون» و«برّانيّون»؛ أو «منخرطون» و«خوارج» (هـ.م.).

(٥) Thersites: يونانيٌّ اشتَهَر ببذاءته عند حصارِ طروادة (هـ.م.).

(٦) Theodor Wiesengrund Adorno (١٩٠٣ ـ ١٩٦٩)، مؤلّف **الجدليّة السلبيّة**. وُلد في ألمانيا، ودرّس الفلسفة وعلم الاجتماع في جامعة فرانكفورت. لكنّه انتقل إلى نيويورك إبّان استشراس النّازيّة، حيث عمل مع ماكس هوركهايمر Max Horkheimer في معهد نيويورك للبحث الاجتماعي. وقد مثّل عملهما المشترك **جدليّة التّنوير** بحثاً أساسيّاً في نقد الثّقافة الحديثة، وكرّس الوجودَ الفكري لليسار الّذي غادر ألمانيا في الأربعينات وانتقد النّازيّة والسّتالينيّة على حدّ سواء (هـ.م.).

المتحدة الأمريكية طلباً للأمان، حيث عاش في نيويورك أوّلاً، قبل أن ينتقل إلى كاليفورنيا الجنوبيّة عام ١٩٤١.

يشكّل «أدورنو» ـ لسخريته ونقده ورفضه لجميع الأنظمة ـ المثقّف «النموذجيّ».

وبالرّغم من أنّ أدورنو عاد إلى فرانكفورت عام ١٩٤٩ ليتابع التّدريسَ هناك، فإنّ الأعوام الّتي قضاها في أمريكا قد طَبَعَتْهُ بأمارات المنفى إلى الأبد: فقد كان يكره موسيقى الجاز وكُلَّ ما يمتّ إلى الثّقافة الشعبيّة بصلة؛ ولم يكن لديه أيُّ ميل إلى المناظر الطبيعيّة؛ ويبدو أنّه واظَبَ على نخبويَّتِه في طرق تفكيره، ولذلك ـ وبسبب نشوئه ضمن التّقليد الماركسي الهيغلي الفلسفي ـ فإنّ جميع ما يختصّ بالأثر العالمي الّذي تفرضه الأفلامُ الأمريكيّة والمصانعُ الأمريكيّة وعاداتُ الحياة اليوميّة الأمريكيّة والتّعليمُ الأمريكيُّ المستند [زَعْماً] إلى الحقائق والذّرائعيّة، كان يدفَعُ بأدورنو إلى حافّة الهياج. وبالطّبع فقد كان أدورنو مُهَيَّأً لأن يكون مثقّفاً «منفيّاً» بالمعنى الاستعاري للكلمة قبل قُدومه إلى الولايات المتحدة: فقد كان [قبل قدومه ذاك] شديدَ النّقد للذوق البورجوازي الأوروبّي المزعوم؛ كما أنّ مقاييسَه ـ مثلاً ـ لما كان ينبغي للموسيقى أن تكونَ عليه قد حدَّدَتْها أعمالُ شونبرْغ الفائقةُ الصّعوبة، وهي أعمالٌ كان أدورنو يُقْسم أنّها ستصيبُ شَرَفاً إنْ لم تُسمَعْ أبداً بل بَقِيتْ عصيّةً على السَّمْع دوماً! ولقد كانَ أدورنو ـ بمفارقاته، وسخريتِه، ونَقْدِه الّذي لا هَوادَةَ فيه ـ المثقّف النّموذجيّ (quintessential)، يرفُضُ كُلَّ الأنظمة: سواءٌ تلك التي تقف إلى جانبنا، أو الأُخرى الّتي تقف إلى جانبهم، ويرفضها جميعَها بالنّفور ذاتِه. فالحياةُ، بالنّسبة له، تبلغ ذروةَ خطئها في إجماليَّتِها؛ «فالكُلُّ هو، دائماً، اللاّصحيح»، على نحو ما ذكر مرّةً؛ ومثل هذه الحقيقة هو ما يُضفي ـ حَسْبما أضاف ـ قيمةً أعظم على النّاحيةِ الذّاتيّة، على ضميرِ الفرد، على ما لا يُمكن إخضاعُهُ في المجتمع المُدار إدارةً شاملة.

* * *

غير أنّ المنفى الأمريكيَّ هو الّذي خَلَق تحفة أدورنو الرّائعة **مينيما موراليا**، وهي مجموعةٌ مؤلّفة من ١٥٣ قطعةً نُشرتْ عام ١٩٥٣ وتحمل عنواناً فرعيّاً هو: **أفكارٌ من حياةٍ مُدَمَّرَة**. وإنّه عَبْر شَكْل هذا الكتاب ـ وهو شكلٌ مقطوعاتيٌّ شاذٌّ في غموضه: فلا هو سيرةٌ ذاتيّةٌ متتالية، ولا هو تأمُّلٌ في الموضوعات، ولا هو حتّى عَرْضٌ مُنَظَّمٌ لرؤية المؤلّف العامّة ـ يُعادُ تذكيرُنا بخصوصيّات حياة «بازاروف» في رواية تورغينيف **الآباء والبنون** عن الحياة الرّوسيّة في منتصف القرنِ الماضي(٧). إنّ بازاروف، نموذجاً للمثقّف العَدَميِّ الحديث، هو الشّخصُ الوحيد الّذي لا يُخَصُّ في الرّواية بحكايةٍ تميِّزُه [عن غيره من الشّخصيّات]؛ فعلى الرّغم من أنّ تورغينيف يقضي وقتاً طويلاً في مَوْضَعَةِ الشّخصيات الأخرى وأهلِها وسنواتها المبكرة ومآثرِها الجامعيّة وزيجاتها وغير ذلك، فإنّ «بازاروف» يبقى شخصيّةً متوحِّدَةً تنفجرُ على أديم المشهد، معكِّراً صَفْوَ الجميع بتحدِّياته وتهوُّراته، قبل أن يموتَ فجأةً. صحيحٌ أنّنا نراه مدةً وجيزةً بين والديْه الهَرِمَيْن، لكنْ من الواضح أيضاً أنّه قد تَعَمَّدَ عَزْلَ نَفْسه عنهما. وإنّنا لنخلصُ من ذلك إلى أنْ لا حكايةَ للمثقّف الّذي يحيا حياتَه بحسب أعرافٍ مختلفة عن تلك الّتي يحيا بها الآخرون؛ بل إنّ كُلَّ ما يُصدِرُهُ هو نوعٌ من الوَقْع المُفْقِد للاستقرار (destabilising effect): فهو يُحدِثُ صدماتٍ زلزاليَّةً، وهو يرجُّ النّاس رَجّاً؛ لكنّه لا يُمكن أن يُعَلَّلَ بالاستناد المحض إلى خَلْفيّتِه وأصدقائه.

«إنَّ كُلَّ راحةٍ تقدِّمها البيوتُ التقليديّة التي نموْنا فيها هي خيانَةٌ للمعرفة» ـ أدورنو.

والحقّ أنّ تورغينيف نفسه لا يقول شيئاً عن ذلك كُلِّه. فهو يترك الأمورَ تجري أمام أعيننا، فكأنّه يقول إنّ المثقّف ليس مجرَّدَ كائنٍ منعزلٍ عن الأهل والأطفال، بل إن أنماط حياتِه وأساليبَ تفاعُلِه معها تلميحيّة بالضّرورة أيضاً، ولا يمكن تمثيلها بشكلٍ واقعيّ إلاّ عبر سلسلةٍ من العروض غير المتواصلة. وتتبع **مينيما موراليا** لأدورنو المنطقَ عيْنَه، رغم أنّ تصويرَ المثقّف تصويراً أميناً قد استحال ـ بَعْدَ «آوشفيتز» [محارق اليهود]، وهيروشيما، وبداية الحرب الباردة، وانتصار الولايات المتحدة ـ إلى عَمَلٍ أشَدّ تعذيباً وإيجاعاً ممّا سبق لتورغينيف أن صَنَعَهُ بشخصيّة بازاروف قبل مئة عام على صدور كتاب أدورنو.

إنّ جوهر تمثيل أدورنو للمثقّف ـ منفيّاً على الدّوام، متفادياً القديمَ والجديدَ بالحذق ذاته ـ لَهُوَ أسلوبٌ في الكتابة متكلَّفٌ وشديدُ الصَّنْعَة. فهو، قبل كُلِّ شيء، أسلوبٌ متقطّع، رَجْراجٌ، غيرُ متواصِل؛ إذْ ليس ثمّة حبكةٌ أو نظامٌ مسبَّقٌ يُتَّبعان. إنّه أسلوبٌ يرمز إلى وعي المثقّف العاجزِ عن الشّعور بالرّاحة أنّى حَلَّ، وإلى بقائه في حَذَرٍ دائم من مداهنات النَّجاح. وهذا يعني ـ بالنّسبة لأدورنو الميّال إلى المشاكسة والمعارضة ـ السَّعْيَ الواعِيَ لأنْ يكتب بحيثُ يعجز المرءُ عن فهمه فوراً أو بسهولة. كما أنّ التّقهقر إلى الخصوصيّة [العزلة] الكاملة ليس بالأمرِ

(٧) Ivan Sergeevich Turgenev (١٨١٨ ـ ١٨٨٣): روائي ومسرحيّ روسي. من = أعماله الهامّة **الآباء والبنون** (١٨٦٢) ودخان (١٨٦٧) وشهر في البلد (١٨٥٠). عاش سنوات عدة في أوروبّا الغربيّة وتُرجمتْ معظم أعماله إلى الإنجليزيّة (هـ م.).

ادوارد سعيد: ثلاث مقالات... ومقابلة

المُتاح؛ فَهَا هو أدورنو يقولُ في فترةٍ متأخّرةٍ من حياته المهنيّة أنّ أمل المثقّف لا يكمن في أن يكونَ له وَقعٌ على العالم، بل أن يأتي رجلٌ ما في مكانٍ ما وفي زمنٍ ما فيقرأَهُ على النَّحْوُ الّذي سبق لذلك المثقّف أنْ كتَبَ ما كَتَب!

وتلتقط مقطوعة ١٨ من مينيماموراليا دلالةَ المنفى التقاطاً ممتازاً. فأدورنو يقول «إنّ السَّكَنَ في مكانٍ واحدٍ قد أَضْحى اليومَ أمراً مستحيلاً». ويضيف «أنّ البيوتَ التّقليديّةَ الّتي نَمَوْنا فيها قد صارتْ لا تُطاق: ذلك أنّ كُلَّ مزيّةٍ من مزايا الرّاحة الّتي توفّرها تقابلها خيانَةٌ للمعرفة؛ كما أنّ كُلَّ أثرٍ من آثار الأمان الّذي تُقدِّمُه [هذه البيوتُ] تقابلُهُ معاهَدَةٌ باليةٌ من المصالح العائليّة». وهذا النّقد كافٍ بالنّسبة لحياة النّاس الّذين تَرَعْرعوا قبل الحرب وقبل ظهور النّازيّة. غير أنّ الاشتراكيّة والاستهلاكيّة الأمريكيّة ليستا أفضلَ حالاً؛ ففي ظِلِّ هذين النّظامين ـ كما يقول أدورنو ـ «يعيش النّاس، إن لم يكن في أحياء قذرة ففي بَنْغَلات (bungalows) قد تصبح في الغد أكواخاً مصنوعةً من أوراق الشّجر، أو عرباتٍ مقطورةً على شكلِ بيوت متنقّلة، أو سيّاراتٍ، أو خِيَماً، أو هواءً طَلْقاً». ويقرّر أدورنو أنّ «البيتَ أمرٌ قد مَضَى وانتهى...»، وأنّ «أفضل سلوك يسلكه المرء في مواجهة كُلِّ هذا هو السُّلوكُ المُعَلَّقُ غَيْرُ المُلْتَزِم (Uncommitted, suspended conduct...): «أنْ لا تشعر أنّك في بيتك [مرتاحاً] وأنتَ في بيتك لهو جزءٌ لا يتجزّأ من الأخلاقيّة»(*).

غَيْرَ أنّ أدورنو ما إن يعثر على استنتاج ظاهر حتّى يقلبَهُ رأساً على عَقب، حين يقول: «إنّ فَرَضِيَّةَ هذه المفارقة تؤدّي إلى الدَّمار، إلى اللّامبالاة غير المحبَّة للأشياء، وهو الأمر الّذي سينقلب ـ بالضّرورة ـ على النّاس أيضاً. وأمّا الفرضيّة المضادّة فإنّها ستُشَكِّلُ، بمجرّد التّفوّه بها، إيديولوجيّةً لأولئك الّذين يأملون أن يحتفظوا ـ وضميرهم مُعَذَّبٌ ـ بما يملكونَه. والحقّ أنّ الحياةَ الخطأ لا يمكن أن تُعاشَ صواباً».

وبكلام آخر، فليس ثمّة من مخرجٍ حقيقيّ حتّى بالنسبة للمثقّف المنفيّ الّذي يسعى إلى أن يبقى مُعَلَّقاً [من غير التزامات] Suspended. ذلك أنّ منزلَةَ الـ «ما بَيْن» in - betweenness قد تصبح هي ذاتُها موقعاً إيديولوجيًّا جامداً، أو نوعاً من المَسَاكِنِ يَسْتُرُ الزَّمَنُ ظلالَها ويعتاد الإنسانُ عليها بسهولةٍ مفرطة. ومع هذا، فإنّ أدورنو يتابع فكرته بزخم أشدّ، فيقول: «إنّ البَحْثَ [أو التّحقيقَ] الشكّاك حالةٌ صحيّةٌ دوماً»، ولاسيّما حين يتعلّق الأمرُ بالكتابة الّتي يمارسها المثقّف: «فالكتابة تُضحي، لمن فقد وطنَه، مكاناً يعيشُ فيه». ورغم هذا ـ وهنا نأتي إلى لمسةِ أدورنو الأخيرة ـ فإنّ أدورنو لا يأذن للمثقّف بأن يتراخى حَبْلُ صرامةِ تحليله للذّات. فهو يقول: «إنّ مطالبة المرء بتصليب ذاته تعني إيجادَ الضّرورةِ التّقنيّة لمواجهةِ أيِّ تراخٍ في التّوتُّر الثّقافي، وبأقصى درجاتِ اليَقَظة. وتعني كذلك قَشْرَ الأمور الّتي عَلِقَتْ بالعمل [أو الكتابة] أو انجَرَفَتْ معهما بكَسَل؛ فلئنْ سبق لهذه الأمور أن شَكَّلَتْ، في مرحلةٍ مبكّرة ما، دَرْدَشَةً تَخَلَّقَ عَبْرَها جَوٌّ دافئٌ يعينُ على النّموّ، فإنّها [أي تلك الأمور] اليومَ قد خُلِّفتْ راكدةً (بايخة). وفي نهاية المطاف، لا يُسمح للكاتب بأن يعيش في كتابته».

* * *

إنّه لأمرٌ قاسٍ ويورثُ الكآبة حقّاً: أن نرى أدورنو ـ المثقّف منفيّاً ـ يكدّس التهكُّمَ تِلْوَ التهكُّم على الفكرة القائلة بأنّ عملَ الإنسان قد يوفّر له بعضَ الرِّضى، أو نوعاً بديلاً من العيْشِ ايشكّل فترةً زمنيّةً يرتاحُ فيها قليلاً من حَصَر «اللّامَسْكَن» وهامشيّته. غير أنّ ما لم يتحدّثْ عنه أدورنو هو **مُتَعُ المنفى**، وأعني بها تلكَ التّرتيباتِ المختلفةَ الخاصّةَ بطرقِ العيش وزوايا النّظر الشّاذّة الّتي توفّرها تلك المُتَع أحياناً. فقد لا تفوز بالجوائز، وقد لا يُرَحَّبُ بك في جمعيات التّشريف (الّتي تهنّئ نفسها، في الواقع، وتستبعد بشكلٍ روتيني «أصحاب المشاكل» المُرْبكين)؛ ولكنّك ستستمدّ ـ بفضل المنفى والتّهميش ـ بعضَ الأمور الإيجابيّة.

للمنفى مُتَعٌ لا كآباتٌ فقط. ومن هذه المتع: الاندهاش، ورؤية الأمور التي لا يراها في العادة مَنْ لم يسافرْ خلف التقاليد «المريحة».

الأمرُ الإيجابيُّ الأوّل هو ـ بالطّبع ـ متعةُ الاندهاش، متعةُ ألاّ تُسلِّم أبداً بأيّ شيءٍ على الإطلاق، بل أن «تدبِّر نفسَك» حين تواجه أوضاعاً مهتزّةً غيرَ مستقرّةٍ تربك معظمَ الأفرادِ الآخرين وتفزعهم. إنّ المثقّف يُعنى، أساساً، بالمعرفة والحريّة. وهاتان القيمتان لا تكتسبان معناهما بوصفهما من الأمور المجرّدة ـ على نحو ما قد توحي بذلك العبارةُ التّالية: «عليكَ بالتّعليم الجيّد لكي تتمتّعَ بحياة جيّدَة» ـ وإنّما بوصفهما تجربتيْن تَمَّ خوضُهما بالفعْل. فالحالُ أنّ المثقّف أشبهُ ما يكون بإنسان تحطّمَتْ سفينتُه، فراحَ يتعلّم كيف يحيا مع الأرض لا فوقها؛ فَمَثَلُهُ لَيْس مَثَلَ روبنسون كروزو الّذي كان يهدف إلى استعمار جزيرته الصّغيرة، بل هو أقرب إلى أن يكون ماركو پولو الّذي لا يتخلّى عنه الإحساسُ بالدّهشة لحظةً واحدةً.. بل يبقى على الدّوام رحّالةً، ضيْفاً مؤقّتاً، لا طفيْلياً أو محتلاً أو مُغيراً.

(*) «It is part of morality not to be at home in one's home»

ولمّا كان المنفيُّ(*) يرى الأمورَ بحسب ما تُخُلِّيَ عنه وما هو موجودٌ هنا والآن على حدّ سواء، فإنّه يمتلك منظوراً مزدوجاً لا يرى الأمور معزولة واحدها عن الآخر. فكلّ مشهدٍ أو وضعٍ في البَلَدِ الجديد [المُغْتَرَب] يُحيلان بالضّرورة على نظيريْهما في البَلَد الأمّ؛ ومن هذا التّجاور يتمكّنُ المرءُ من الحصولِ على فكرةٍ أفضل - أو ربّما أكثر شمولاً [عالميّةً] - عن كيفية التّفكير في قضيّةٍ من القضايا، كقضيّة حقوق الإنسان في بلدٍ ما وذلك بمقارنتها مع وضعها في بلدٍ آخر.

والأمرُ الإيجابيُّ الثّاني بالنّسبة للمثقّف المنفيّ هو أنّه يميلُ إلى أن يرى الأشياءَ لا كما هي، بل كيفَ **صارتْ** إلى ما هي عليه. فهو يميل إلى أن ينظر إلى الأوضاع بوصفها أموراً محتملةً لا حتميّةً؛ إنْ هي، في رأيه، إلّا نتيجةٌ لسلسلةٍ من الخيارات التّاريخيّة الّتي اتّخذها رجالٌ ونساءٌ معلومون؛ وهي حقائقُ اجتماعيّةٌ صَنَعَتْها كائناتٌ بشريّةٌ، وليست أموراً أنتجتها الطّبيعةُ أو وَهَبَها اللهُ؛ فهي ليست ثابتةً، دائمةً، يتعذّرُ إلغاؤها.

إنّ النّموذج العظيم لهذا الموقع الثّقافي الّذي تحدّثتُ عنه للتوّ هو الفيلسوف الإيطالي جيامباتيستا ڤيكو (Giambattista Vico) الّذي عاشَ في القرن الثّامن عشر، وشكّل - منذ أمدٍ بعيدٍ - واحداً من مُثُلي العليا. إنّ اكتشاف ڤيكو العظيم - الّذي تأتّى له إلى حدٍّ ما من وَحْدَته: فقد كان أستاذاً نابوليّاً مغموراً، يعيشُ عند حدّ الكفاف، وفي حالة نزاع مع الكنيسة ومحيطه المباشر - هو أنّ الطّريقة الصّحيحة لفهم الحقيقة الاجتماعيّة إنّما تتمّ باعتبارها سلسلةً من الأحداث نبعتْ من نقطةٍ يستطيع المرءُ أن يحدّدها، على الدّوام، عند المستويات الدّنيا. وهذا يعني، على نحو ما ذكر في كتابه العظيم **العلم الجديد**(8)، رؤية الأشياء وقد تطوّرَتْ من بداياتٍ محدّدة، كما تطوّر الإنسانُ البالغ من الطّفل المُتَغْتِغ.

ويحاول ڤيكو أن يُبرهِنَ أنّ وجهة نظره تلك هي الوحيدة الجديرة بأن تُتَّخَذَ حيالَ العالم الدّنيويّ الّذي هو - حسبما أكّدَ ڤيكو مراراً وتكراراً - عالمٌ تاريخيٌّ ذوَ قوانين ومساراتٍ خاصّة به، وليس بخاضع للتقدير الإلهي. وهذا يستتبعُ احتراماً للمجتمع الإنساني، وإنْ لم يكن يستتبع تقديسَه. فعلى المرء، إذن، أن يرى إلى القوى، أيّاً كانت عظمتها، بحسب منبعها ووجهة سيرها؛ فلا تَروعُه الشّخصيّةُ المهيبَةُ أو المؤسّسَةُ الفخمةُ اللّتان تدفعان بابنِ البلد الأصلي (native) - وهو الّذي رأى دوماً، وبجّل، عظمَتَهما دونَ أن يرى أو يبجّل المصدرَ الإنسانيّ الواطئَ الّذي منه نبعا بحكم الظّروف - إلى الصّمتِ والخضوع الصّاعِق. إنّ المثقّف منفيّاً لَهُوَ بالضّرورة إنسانٌ ساخرٌ، شكّاكٌ، بل هو هازِلٌ أيضاً، لكنّه ليس كَلْبيّاً.

إنّ الانزياح الّذي يفرضه المنفى يعني، بالنّسبة للمثقّف، تحرّراً من المهنة الاعتياديّة، حيث يشكّل «النّجاحُ» والاتّباعيّةُ المتمتّعَة بقداسةِ القِدَم المَعْلَمَيْن الأساسيَّين. إنّ المنفى يعني أنْ تكون هامشياً على الدّوام، وأنّ ما تقوم به كمثقّف هو محضُ خَلْقٍ لأنّه ليس بمكنتك أن تتبع درباً موصوفة سَلَفاً. فإذا استطعت أن تعيشَ قَدرَكَ هذا لا بوصفه حرماناً ولا أمراً تندُبُ حَظَّكَ عَلَيْه، بل بوصفه نوعاً من الحرية وعمليةَ اكتشاف وقياماً بالأمور بحسب أسلوبك الخاصّ الّذي يفرضه الهَدَفُ الّذي عَيَّنْتَهُ لنَفْسِك. فإنّ ذلك سيكون متعةً فريدة. وإنّك لتعثر عليها في أوديسّة س. ل. ر. جايمس، وهو المؤرّخ وكاتب المقالات التّرانيدادي الّذي قَدِمَ إلى انكلترا بين الحربين العالميتين لاعبَ كريكيت وسجّلتْ سيرتُه الذّاتيّةُ الثّقافيّةُ **أبعد من الحدود** تاريخَه مع هذه اللّعبة، وتاريخَ هذه اللّعبةَ في زمن الكولونياليّة؛ كما كتب **اليعقوبيّون السُّود**، وهو كتاب مثير يؤرّخ لثورة الرّقيق الهايتيّين السّود في أواخر القرن الثّامن عشر، الّتي قادها تُوسان لُوڤِرْتُور؛ ثمّ أصبح خطيباً ومنظّماً سياسيّاً في أميركا وكتب دراسة عن هيرمان ميلڤل عنوانُها **بحّارةٌ ومرتدّون ومنبوذون**، ثمّ كتب دراسات مختلفة عن القوميّة الإفريقيّة وعشرات المقالات عن الثّقافة الشّعبيّة والأدب. وهو بهذا كُلّه قد برهن أنّه ينهج خطّاً شاذّاً، مُقَلْقِلاً، مخالفاً إلى درجة كبيرة كُلَّ ما يمكن أن نطلق عليه اليوم لقبَ «مهنة محترفة خالصة». ومع ذلك، فأعجِبْ بالغزارة وبالاكتشاف الذّاتي السّرمديّ اللّذين يتضمّنهما نهجُهُ!

قد يعجز أكثَرُنا عن محاكاة مصير الكتاب المنفيّين كأدورنو وس. ل. ر جايمس. غير أنّ دلالة هؤلاء بالنّسبة للمثقّف المعاصر تبقى وثيقة الصّلة.

فالمَنْفِيَّة نموذج للمثقّف الّذي تغريه مكافآتُ التّكيّف والإذعان والاستقرار، أو تقضّه وتربكه على حدّ سواء. فحتّى لو لم يكن المرءُ مهاجراً أو مغترباً بالفعل، فإنّ في وسعه أن يفكّر كذلك: فيطيرَ بخياله واكتشافاته خلف الحواجز، ويبتعد عن السّلطات الممركزة، قاصداً الهوامشَ، حيث يتسنّى له أن يرى الأشياءَ الّتي تتوه في العادة عمّن لم يُسافرْ قطّ وراء الأمور التّقليديّة والمريحة!

(*) نعيد تذكير القارئ بأنّ لفظ exile الّذي يستخدمه إدوارد سعيد يشمل المنفيّ طوعاً، والمثقّفَ الّذي شاءَ ألّا يرتبط بقيم مجتمعه السّائدة وأعرافها. فالمنفيّ قد يعني إذن المطرود، والمغترب، والهامشيّ، والمستقلّ، . . . (هـ. م.)

(8) Scieza Nuova صدر عام ١٧٢٥ ويُعتبر اليوم واحداً من أعظم المؤلّفات في تاريخ النّظرية الاجتماعيّة. ويسعى المؤلّف إلى وضع نظرية شاملة للمجتمع الإنساني وللصراع الطّبقي قبل كونت وماركس (هـ. م).